

الآن . . . نحتاج الى فن الأبطال

كل الملاحم المصرية والعربية التي صاغها الشعب المصري والعربي في عصور المواجهة الهائلة ضد الصليبيين والتتار . ملاحم عنتره وسيرة بني هلال والاميرة ذات الهمة والظاهر بيبرس والوزير سالم وحزمة البهلوان وحكايات الملك النعمان وولديه شركان وقمر الزمان ، التي ضمت الى ألف ليلة وليلة المصرية ، كتبها وصاغها الشعب المصري والعربي في مراحل الصراع الحضاري والقومي الهائل ضد القوى الاجنبية ، الاوروبية والاسيوية التي حاولت تدمير حضارتنا وطمس معالمنا القومية والروحية الاصيلية . انها العصور « البطولية » التي عاشها الشعب العربي في مراحل الدفاع عن نفسه وعن حضارته . وليس من الغريب ان يدمج الشعب في هذه الملاحم عشرين بطوليين دون اعتبار لفارق الزمان بينهما : عصر الفتوح العربية الاسلامية الكبرى ، وهو عصر « الهجوم » الحضاري العربي ، وعصر الحروب ضد الصليبيين والتتار والمغول ، وهو عصر « الدفاع » الحضاري الباسل ، ليس من الغريب ان نرى في هذه الملاحم عنتره بن شداد ، او المهلهل ، عدي بن ربيعة وهو « الوزير سالم » او الملك « سيف بن ذي يزن » وهم يدافعون عن الاسلام ويقولون الشعر في مدح الرسول الكريم ، وفي تمجيد القيم الروحية والحضارية البطولية التي رسخها ابطال الفتوح الحقيقيون ، حمزة وعلي وخالد وابو عبيدة وسعد بن ابي وقاص والنعمان بن مقرن ومحمد بن قتيبة ومحمد بن القاسم وطارق بن زياد وغيرهم . .

ليس ذلك غريبا لان « القيم » الروحية والحضارية التي رفع رايتها ابطال الهجوم هؤلاء ، هي نفس القيم التي صاغها وجسدها ابطال « عصر الدفاع » ، رغم ان عنتره والمهلهل وسيف بن ذي يزن عاشوا قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - بنصف قرن على الاقل . لكن الشعب الذي اراد ان يجسد بطولته وقيمه ورموز حضارته الروحية والاخلاقية في « اشخاص » محددين ، وقع اختياره على « الرجال او النساء » الذين عاشوا حياة « الابطال » الحربيين ، وحملوا في نفس الوقت راية القيم الروحية والاخلاقية العزيزة على الشعب ، وجسدوا في اشخاصهم فضائل شعبهم وقاوموا رذائله .

سمتان اساسيتان نراها في هؤلاء الابطال الملحنيين : انهم كانوا ابطالا مقاتلين في ساحات الحرب لا يهزمون ، حتى النساء مثل الاميرة ذات الهمة ، وانهم كانوا « شخصيات » انسانية متكاملة وعلى قدر كبير من الواقعية رغم قدراتها الخرافية التي تتناقض مع قوانين الطبيعة . انها شخصيات واقعية ، وليست مجرد « رموز » غامضة ، وهي واقعية ليس فقط لانها تتكامل في كل جوانب السلوك والعواطف والتفكير : الحب والنزوات والاندفاع والتأمل الرصين والتدبير والمراوغة . . الخ . . ولكن لانها كانت ترسم في المحمة ، في العمل الادبي التلقائي الكبير ، على مساحة عريضة من الزمان والمكان ، لكي تصبح في النهاية « نمطا » عاما ، يشير الى كل الافراد الآخرين « المحتملين » من ابناء الشعب ، وفي نفس الوقت تحتفظ بتميزها وتفردها الشخصي : البطل فرد متميز لا مثيل له ، وهو في نفس الوقت نمط يحمل السمات العامة لشعبه كله . وهذا هو القانون الاساسي للواقعية .

ولهذين السببين ، وخاصة لواقعيتهما الانسانية هذه ، ظلت تلك الملاحم تلعب دورا اساسيا في تفتية وجسدان الشعب على مر

العصور ، وحتى زمن قريب جدا . وجاءت المطبعة ، والتعليم . . . وتلاهما الراديو والسينما والمسرح والتليفزيون ، وازاحت هذه الوسائط الجديدة « شاعر الرماية » مغني الملاحم القديمة من مكانه ومكانته ، وشرعت تقدم اعمالها الخاصة التي يكتبها اديباء وكتسحاب معروفون بالاسم . حلت الوسائط الجديدة محل الشاعر القديم . . وحل هؤلاء الكتاب الافراد محل الشعب كله في ابداع الاعمال الادبية التي لا غنى للشعب عنها ولا يعيش حياته الوجدانية والعقلية الا بها . .

الدهش اننا نعيش الآن ، ومنذ جيل كامل على الاقل ، عصرا « بطوليا » نواجه فيه غزوة حضارية كبيرة ، ونتحمل فيه ايضا مسؤولية التحول الاجتماعي التاريخي الكبير . الجهد الذي تبذله الامة الآن يسير بكل عناصر « البطولة » في طريقين لا ينفصلان : الجهد العسكري من اجل التحرير ، والجهد السياسي والاقتصادي من اجل التحول الاجتماعي الشامل ، وعلى كل طريق من الطريقين ، ينتصب ابطال حقيقيون ، لا حد لبطولتهم ، ولا حد في نفس الوقت لسلطتهم وتواضعهم النضالي العظيم المشبع بالكبرياء ، والجميع جاءوا من ارحام نفس الشعب ، وخرجوا من نفس المدن والقري والحقول والمصانع والمدارس والجامعات ، والجميع يناضلون بالدم والعرق والفكر من اجل الدفاع عن وجودنا المادي ذاته ، وعن مقومات وجودنا المعنوي ، قيمنا الحضارية ، الروحية والاخلاقية ، وفي نفس الوقت يهاجمون اوكار التخلف والجهل والفقر والقهر ويكونها لكي يشيد شعبنا حياته الجديدة .

نحن نعيش في عصر بطولي امتزج فيه الهجوم الحضاري بالدفاع الحضاري . . في معركة وطنية واجتماعية لم يشع وطننا شيئا لها من قبل . وابطالها لا يتمتعون بقدرات خرافية ، ولكنهم اناس عاديون ، بسطاء ، يثقون في العمل والعلم والحياة والمستقبل ، ويعملون في ساحة القتال وفي ميادين الانتاج بنفس المثابرة والصبر وانكار الذات . ورغم هذا فما اقل ما ابدعه اديبونا عن هؤلاء الابطال من اعمال ادبية ، ما اقل الابطال الذين صاغهم اديبونا لكي يجسدوا فضائل الشعب في هذا العصر البطولي الازدوج العظيم ، لكي يكونوا انماطا يشيرون الى ملايين الابطال الحقيقيين في كل مكان . . وافرادا حقيقيين يلهمون الملايين بتجسيدهم البارز المحمل بجمال الفن وطاقته الشعورية الفياضة لفضائل ملايين الابطال الحقيقيين .

ربما كانت لهذا التقصير اسباب موضوعية كثيرة ، ليس هذا مكان بحثها . ولكن ، لا شك ان كل هذه الاسباب يمكن ان تراجع الان الى منطقة الظل لكي تخلي مكانها للسبب الجديد الذي يدفع بابطال الحياة الايجابية العظيمة الى مركز الصدارة في ادبنا ومسرحنا واخلقنا وكل انتاجنا الفني .

هذا السبب هو الذي صاغه جنودنا بالدم على رمال سيناء ، وعلى صخور الجولان وسفوحه . لا مسوغ للتلكؤ في ابداع هؤلاء الابطال : فليمد الكاتب يده الى الحقيقة لكي يحصل على عشرات « الابطال » الحقيقيين ، المتواضعين في بساطة منهلة ، وهم الذين يجتازون النار والفولاذ في كل لحظة ، ويجتروحون المعجزات الانسانية في تلقائية لا يستطيع غير الفن العظيم ان يجعلنا ندرك كل ابعادها .

فليس كتابنا قليلا الهومو الحقيقية التي افرزت ادب الانهيار ، لان املا عظيما ومعركة هائلة تقدم السبب الحقيقي والمسرر لابداع ادب البناء ، البطولي ، الواقعي الذي نتمناه .